# قصيدتان من بغداد

. سامي مهدي* .

## حكايةُ رجلٍ من أوروك

حَلَقْتُ لحيتي وجئْتُ من «أوروكَ»
من أوائلِ الزمانْ.
لستُ من الكهّانْ،
ولا من الملوكِ، أو مِنْ خَدَمِ الملوكْ،
وإنّما إنسانْ
من سائرِ الناسِ «ذوي الرؤوسِ السودْ،»
تعلَّمَ الكتابَه
وحكمةَ الماضينَ والعزفَ على القيثارِ والربابَه
وظلَّ فلاّحًا فقيراً في مزارعِ الإلهْ:
عُدَّتُهُ يداهْ،
وزادُهُ ما كانَ يُعطى من شعيرٍ حينما يُقَسَّمُ الحصيدْ.
وعندما تغيَّرَ الميزانْ
وأصبحَ الناسُ فريقينِ من السادةِ والعبيدْ،
وصارتِ الجباهْ
تُوشَمُ، كالأنعامِ، والإلهْ
يَنْظرُ في صمتٍ ولا يُنكرُ ما يراهْ،
دُهشْتُ، واضطربتُ حتّى صارتِ الشكوكْ
تَنْهشُ كالديدانْ
جدرانَ قلبي، وأنا حيرانْ.
صرتُ أرى الأشياءْ
بغيرِ ما كنتُ أراها: فَفَمُ السماءْ
مُخَيَّطٌ، والأرضُ مثلُ الماءْ
رجراجةٌ،
وجُدُرُ البيوتْ
مائلةٌ،
وكلُّ شيءٍ شاهَ واعوَجَّ من الكعبِ إلى اللسانْ.
فلمْ أعدْ أُطيقُ ثوبَ الصبرِ والسكوتْ.
وكيفَ للإنسانْ
أن يأكلَ الحنظلَ في خبزٍ من الهوانْ،
من دون أن يَكْفرَ بالكاهنِ والسلطانْ،
ويقطعَ الأرضَ إلى نصفينِ من نارٍ ومن وقودْ؟
وهكذا فررتُ واختفيتْ،
هِمتُ مع الوحوشِ في البرِّ وما انثنيْتْ.
لكنني كتبتُ قبلَ أنْ أفرَّ ما رأيتْ
في رُقُمٍ دفنتُها تحتَ جدارِ البيتْ.
وقلتُ: «قد تنفعُ من يأتونْ
بعدَ قرونٍ حينَ يعثرونْ
على وصاياي.» فهلْ أخطأتْ
في ما أنا كَتَبْتُ أو أَوصيْتْ؟!
فكلُّ ما ألقى هنا الآنَ وما أراهْ
هو القديمُ في إهابٍ لامعٍ جديدْ،
وهذه أفعاهْ
بغيرِ جلدِها العتيقِ جاءتْ
مثلما حَلَقْتُ لحيتي وجئتْ!

❖ ❖

وعندَ هذا، سَكَتَ الرّاوي عن الكلامْ
كأنَّه أرادَ أنْ يرتاحَ من أوزارِ ما يَنْفثُ من شجونْ،
فَعَمَّ صمتٌ بدتِ الوجوهُ فيه كشواهدِ القبورْ
وجالتِ الأحداقُ في الأعينِ مثلَ الخرزِ المنثورْ

* ـ شاعرٌ وناقدٌ من العراق.

كأنها تَبْحثُ عن جفون
أُخــرى تواري مــا تـنمُّ عنه من ذنوبْ.
وفجأةً ندَّ عن الحضورْ
صوتٌ أجشُّ صائحًا: «مجنونْ!
لا ريبَ، هذا رجلٌ مجنونْ!»
ثمَّ انبرى آخرُ يبدو أنّه خطيبْ
وقــالَ: «يا قــومُ احــذروا تطفُّلَ الغريبْ
ولا تصدّقوا كلامَه المنمَّقَ المُريبْ،
فــأينَ هذا الجِلْفُ من ســمــاحــةِ الأسلافْ
حــتى يكونَ قــاضــيًــا للعــدلِ والإنصافْ؟
وكــــيفَ، باللهِ، أتى مِنْ أوَّلِ العصور؟
على بساطٍ، أمْ على بعيرْ؟!»
فقهقهتْ من سَفَهٍ أفواهْ،
وارتجفتْ من غضبٍ شفاهْ.
لكنَّ غيرَهُ مضى يقولْ:
«ألا ترونَ أنه جاسوسْ،
تبـيعُـه وتشـتـريهِ هذه الزانيـةُ الفلوسْ؟!»

وصاحَ رابعٌ له مَلامحُ السَّيّافْ:
«دعوني أَقْتلْه، فهذا شرٌّ ما نخافْ
منه، إذا ما انفلتَ الزمّامْ!»
ولمْ يكدْ يَسْكتُ حتّى هبَّ آخرونْ
للذَّوْدِ عن صاحبِنا الراوي
بما أُوتُوا من الأذرعِ والألسنِ والعيونْ.
لكنَّه استَمْهَلهمْ بإصبعٍ كالحجَرِ المسنونْ
وقالَ في حزمٍ وفي أناةْ:
«مـهـلاً، فليـستْ هـذه الأصـواتُ والوجوهْ
غريبةً بما تواريه وما تَفوه
به. فـأنـتَ كنتَ، في كـيـشَ، من الجُباةْ
تَجْبي من الأراملِ الأنّاتِ والدُّموعْ!
وأنتَ، هل كـنتَ سـوى واشٍ من الوشاةْ
يُذلِّلُ الأعناقَ للكُهّانِ والملوكْ؟!
وأنتَ، يا نخّاسْ،
ألمْ تَبعْ في السُّوقِ حتى الجَسَدَ الوجيعْ؟!
وأنتَ، يا مُقطِّعَ الأنفاسْ،

ألمْ تكنْ من دونِ كلِّ الناسْ
تَقْـتلُ فَـلاّحينَ بالشُّـبْـهـاتِ والشُّكوكْ؟!
وأنتَ؟ مــاذا عنكَ يا مَنْ يرتدي عَباءةَ الكاهنِ في الزّحامْ؟
ألمْ تكنْ تبيعُ، في ماري وفي عيلامْ،
ما اختزنتْ أورُ وأوروكُ من الأسرارِ والأحلامْ؟!
مـهـلاً إذنْ، مـهـلاً، فـإنِّي أعْـرفُ الجميعْ:
طويلَكم هذا، وهذا الضّـامـرَ القصيرْ،
وذلكَ السّابحَ في جُبَّتِهِ،
أو ذلكَ المُرَقَّطَ المجدورْ.
فكلُّكمْ تُجّارُ قمْلٍ وجَرادٍ، تحتفي الأسواقُ والبنوكْ
بكمْ هنا. وكلُّكمُ رأيتُكمْ، هناكَ، في أوروكْ.
وإنني فَرَرْتُ منكمْ أمس،
أمّا الآنْ،
فلنْ أفرَّ في غُبارِ خوفي مثلما فررتُ في أوائلِ الزمانْ،

بلْ أملأُ الدُّنيا صراخًا: إنني إنسانْ،
وإنّكم نَسْلُ وحوشِ العالمِ السُّفليِّ
في ما مرَّ من عصورْ!»

❖ ❖

وقبلَ أنْ يُكملَ قولَ ما يريدْ
ويَعْرفَ الخصمَ من المُريدْ،
تَسَرَّبَ الحضورْ،
وظَلَّ وحدهُ يدورُ في الفراغِ،
مثلَ رغوةٍ في سورةٍ تدورْ..
ولمْ يزلْ يدورْ..
ولمْ يزلْ يدورْ.
فهلْ بهذا انتهتِ الحكايه
(تساءَلَ السمّارُ مدهوشينَ)،
أمْ ما زالتِ النهايه
بعيدةً؟!

فقالَ شيخٌ منزوٍ في أَحَدِ الأركانْ
كأنه تُمالةٌ في قَدَحِ الأزمانْ:
«لو كانَ للقصّةِ من نهايةٍ،
لكانت انتهتْ وماتتْ وَهْيَ في البدايه،
لكنَّها حكايةُ الإنسانْ،
حكايةُ الملاكِ والشيطانْ
وقدْ تَلَبَّساهُ منذُ كانْ؛
حكايةٌ تعيشُ ما عشنا على الأرضِ،
ونرويها متى أَرْهقَنا الطُّغيانْ
ونسألُ الأنفسَ عن حَلٍّ وعن نهايه،
أو أننا نطعنُ، منذُ البدءِ، في
الراوي وفي الروايه!»

**جاريةٌ اسمُها: حرية**

وجاءتْ، أخيرًا، على غيمةٍ من لظًى
وأكفٍّ ملائكةٍ من حديدْ.
إذنْ، فلنؤذِّنْ لها قبلَ وقتِ الأذانْ
ونقرأ لها سورتينِ؛
فقد كَسِبَتْ في السِّباقِ الرّهانْ،
وها هي ترقصُ مزهُوّةً في سقائفِ
سُوقِ العبيدْ
وهم يُنْشدون لها كلَّ حينٍ نشيدْ.
فيا ليلُ طُلْ، واتَّئِدْ يا زمانْ!

❖ ❖

وقالوا: ستَسْكنُ، من بعدُ، أبهى
القصور
وتَفْرشه بنشارةِ عقلٍ جديد
وتَجْعلُه، حين تأنسُ، حانًا ونزلاً
لمن يستطيعونَ دفعَ الأجور،
وكلٌّ وما يشتهي من بضاعتِها وَيريدُ:
خمورٌ معتَّقةٌ،
وسُقاةٌ من الجنِّ يبتدرونَ الزّبونْ،
وجَوارٍ مؤنَّقةٌ
يفتتحنَ شهيَّتَه للمجونْ
ويُكْملنَ وجبتَه في مقاصيرَ من
ذهبٍ وحرير.
ولنْ يُحرَمَ الفقراءُ من الطيِّباتِ؛
فثمةَ ما قد يزيد
على الأغنياءِ، وما قد يُفيد
فقيراً ذكيّاً له خبرةٌ في العلاقاتِ
أو في الحمايات
أو في الجنازاتِ..
أما السياساتُ فهي مطوَّبةٌ لولاةِ
الأمور.

❖ ❖

وقالوا: وماذا تريدونَ أنتم
سوى لذّةِ القولِ والفعلِ؟
هيّا، إذنْ، فاللسانْ
مقامرةٌ،

واليدانْ
مناورةٌ،
والمُزاحُ الثقيلُ هنا لا مُكوسَ عليهِ،
إذاً اجتنبت زلّتانِ:
حديثٌ يلفّقُ عن سيرَجٍ زَنخٍ في القدورِ،
وآخرُ من مثلهِ عن روائحِ نفطٍ وراء الظهورِ.

فالحديثانِ أكذوبتانْ،
ونحن الشُّهودُ الثقاتُ
على ما يدور
هنا في المطابخِ،
أو في المقاصيرِ،
أو في المجاريرِ،
أو في القبورِ.

❖ ❖

وقالوا.. وقالوا.. فماذا نقولُ
وقد أطْبَقَتْ فِتْنتانِ؟!
وها نحنُ في أُخرياتِ الزمانِ أمّتانِ،
ومِنْ حولِنا قاطراتُ دمٍ ودخانِ
وفوانيسُ سودٌ وأبخرةٌ عفنة وسمومْ
وأسماكُ قِرْشٍ تحومْ
وسابلةٌ يهرعونَ إلى اللهِ في طلبٍ للأمانِ؟!

**بغداد**

---

**هذا الكتاب هو وصية إدوارد سعيد.**

**جمع موادّه ونقّحها ودفع بملزماته للطبع، ثم وضع قلمه وغادرنا قبل أن ينتظر النشر.**

**هنا تتكثّف الأوجهُ المتعدِّدة والمتكاملة لشخصية فذّة من أبرز الشخصيات الثقافية في عصرنا: الأستاذ الجامعي، الذي لا يفاخر إلاّ بالتعليم مهنةً له، والناقد الثاقب والرؤيوي معاً، والمثقف الذي يَجْهر بالحقيقة والحقّ في وجه السلطات، والناشط السياسي الذي جهد ـ حتى الرمق الأخير ـ لتخيّل الحلول والوسائل من أجل انتصار قضية شعبه الفلسطيني وقضايا الحرية والعدالة عبر العالم.**

**يعرض إدوارد سعيد في المحاضرات الخمس التي يضمّها الكتابُ خلاصةَ تطوّره الفكري والأدبي وقد تأوّج في التزامه الفكرَ الأنسنيَّ بمنهجه العلماني التقدّمي. إلى هذا، يمارس «القراءة المقرَّبة» للعشرات من الأعمال، بما فيها كتاب محاكاة لإريش آورباخ، أبرز سِفْرٍ في النقد الأدبي المعاصر، ليسلّمنا آخر تأمُّلاته في ذلك الفعل الذي سحره طوال حياته: الكتابة.**